

الياس خوري

ديوان إبراهيم

على امكانيات كسر العمود التي تمت لاحقا .
الاساسي في شعر طوقان ، هو هذه القدرة
العجيبة على الوصول الى ذروة الاهتمام بالوطن .
فالوطن ، يبقى موضوعا للشعر، أي تبقى القصيدة
الكلاسيكية عاجزة عن احداث فراغات في داخلها ،
تسمح للمكان الفلسطيني بالانماة فيها . لكنها في
المقابل ، حين تنوع على موضوع الوطن ، تحوله
الى هاجس من طبيعة سياسية غنية ، وتقوم بتوحيد
عناصرها ، داخل التلقي الجماهيري الواسع .
هذا التلقي هو موحد عناصر القصيدة المفككة بوصفه
فعلا أنيا ومباشرا . تأخذ آنيته معناها من كونه
يتعلق حول موضوعات محددة ، حول تفاصيل
تعيشها الحياة السياسية الفلسطينية في فترة
مقدمات الهزيمة . أما مباشرته ، فهي في قدرته على
احداث اثر واضح المعالم ، بشكل مباشر . انه
ضدى الحركة الوطنية . يحول مشاعرها وافكارها
الى ايقاعات تنبع من الذاكرة . فيجري مزج ايقاع
الذاكرة ، بآنية الحدث الواقعي ، في معادلة الاثر
السياسي المباشر للشعر . تصبح المقدمات الفكاهية ،
وشعر المجون ثم شعر الحب ، مجرد مقدمات
للوصل الى صوت فلسطيني شعري ، له ملامحه
الخاصة ، استطاع من خلال هذه الملامح مزج
موضوعتي الوطن - الارض ، بالفضال ، داخل
سياق قصيدة الموضوع الواحد ، التي تضيء مناطق
الحس الشعبي دون ان تصورها .

« هو بالباب واقف والردى منه خائف
ناهدي يا عواصف خجلا من جراته »

حول رمز الشهيد ، بدأ طوقان ، يمزج الوطن ،
بالفعل المعتر . فالشهيد هو الوطن المتحرك الذي
يصل الى الموت طلبا للارض . فالجولة التي قادها

بصدور الطبيعة الجديدة شبه المتكاملة لديوان
الشاعر الفلسطيني ابراهيم طوقان ، تتقدم
الدراسات النقدية على أرض أكثر صلابة . فالتراث
الشعري الذي كان شبه ضائع لعبد الرحيم محمود ،
صدر مؤخرا في ديوان واحد . والان يصدر اكثر
شعر طوقان في ديوان واحد . يبقى شعر عبدالكريم
الكرمي (أبو سلمى) بحاجة الى الجمع في كتاب ،
حتى تكتمل صورة مرحلة شعرية كاملة ، طبعت
بدايات الصوت الشعري الفلسطيني بطابعها في
الثلاثينات والاربعينات ولا تزال الى اليوم فاعلة
ومحركة ومؤثرة . فالصوت الشعري الفلسطيني ،
حمل في هذه المرحلة ، قضية الشعر الى جانب
قضية الوطن ، ومزجها داخل نبرة كلاميكية
وظيفية ، استطاعت ان تحصل المؤشرات الاولى
للتطور اللاحق الذي عاشه الشعر الفلسطيني الى
اليوم .

أهمية طوقان هي ، كما يشير احسان عباس في
دراسته القصيرة المشهورة في آخر الديوان ، في
كونه « أكبر شاعر أنجبته فلسطين حتى اواخر
العقد الرابع من هذا القرن » . وهو ككل شاعر
كبير ، حبل داخل قضية الشعر وجهة متماسكة
طبعت جميع مراحل انتاجه الشعرية . فروح النكتة
والنثرية البليغة ، حين تدخل الشعر ، فانها تطبعه
بنكهة خاصة ، سوف تكون مؤشرا لمحاولات طوقان
التوزيع داخل عمود الشعر الكلاسيكي على بنية
القصيدة ، ليفتح فيها ، انطلاقا من النشيد
السياسي ، فجوات تقربها من الموشح ، وتفتقها

✻ ابراهيم طوقان : ديوان ابراهيم . دار القدس ،
بيروت . شباط ١٩٧٥ .